ثانياً: أهمية الخيل

لم تعنَ أمة من الأمم بالخيل عناية العرب بها، فقد أحبوها واعتنوا بها، وبتربيتها وترويضها وبيطرتها، وحافظوا على أنسالها وأنسابها حتى أصبحت الخيول العربية أكثر الخيول أصالة في العالم، فقد دخلت في كل مرافق حياتهم بدءاً من الشعر وانتهاءً بالحرب مروراً بالصيد والنقل والرحلات، وعندما جاء الإسلام حملت رايات الإسلام الخضراء عالية خفاقة إلى أصقاع المعمورة.

يقول أحمد وصفي: «وللخيل إكرام كبير، ومنزلة رفيعة في المضارب، تراها مربوطة في أكرم أرض أمام البيوت كأنها من أفراد الأسرة، يحيطها كبيرهم وصغيرهم بكل رعاية..» أ.هـ.

ولطالما آثرها العربي على زوجه وأولاده ونفسه، فباتوا جميعاً جائعين ظمآنين مع شبعها وريها، وكانوا يلحفونها بأرديتهم إذا جاء الشتاء، ويسقونها لبن النياق في الصباح الباكر، ويتخذون لها نعالاً من الحديد وقاية لحوافرها، فجمالها ورفيع مكانتها وعماليتها وقوتها، وصبرها على بأساء الحرب يجعلها تتفوق على بقية الحيوانات الأخرى الأليفة.

وجاء في كتاب (حلية الفرسان وشجاعة الشجعان): «فلم تزل العرب تفضل الجياد من الخيل على الأولاد، وتستكرمها للزينة والطرد، على أنهم ليطوون مع شبعها، ويظمؤون مع ريها، ويؤثرونها على أنفسهم وأهليهم عند حلول الأزمة واللأواء، وأغبار السنة الشهباء» أ.هـ.

وللعرب في معرفة الخيل العربية أو عراب الخيل مقاييس دقيقة تظهر من أقوالهم وأشعارهم، فيروى عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه عرض بعض الخيل على سليمان بن ربيعة الباهلي لتمييزها، فأحضر طشتاً به ماء، ووضعه على

الأرض، ثم قدمت الخيل تشرب فرساً فرساً، فما ثنى منها سنبكه هجنه، وما لم يثنه عربه. وعلل ذلك بأن في أعناق الهجن من الخيل قصراً لا تنال معه الماء إلا على تلك الحال، بينما أعناق الخيل العتاق طوال.

فهذا عقبة بن سنان يصف خيلاً أهديت إلى معاوية بن آبي سفيان فيقول: «إنها لسامية العيون، لاحقة البطون، دقيقة الآذان، أفتاء الأسنان، ضخام الركبات، مشرفات الحجبات، رحاب المناخر، صلاب الحوافر، وقعها تحليل، ورفعها تعليل، فهذه إن طُلبت سبقت وإن طَلبت لحقت» أ.هـ.

وذكر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- أنه كتب إلى أهالي حمص: «علموا أولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل اخشوشنوا وانزوا على الخيل نزوا».

يقول لورانس العرب: «يُعد العرب من الشعوب الأكثر ارتباطاً بخيولها، فهم أكثر الشعوب عنايةً بالنسب والرعاية واختيار طرق التربية، أما أسماء جميع الأحصنة والأفراس العظيمة ومميزاتها، وألوانها، وأعمارها، وكفاءتها، فهي معروفة لدى المربين العرب على وجه العموم» أ.هـ.

ولقد حرص العربي على تعويد فرسه على المعيشة في مختلف البيئات ومختلف أنواع التربة من رملية وحجرية إلى جبلية حتى تعتاد السير والمعيشة في ظروف مناخية متباينة؛ وذلك لأن المهمة التي يقوم بها الحصان لا ترحمه أبداً؛ ولأن ظروف حياة العرب قد تقذف بالعرب في أي مكان لم يعهده من قبل، فالحرب مثلاً لا تعرف اختيار مكان خاص لظروف جغرافية خاصة.

وقد أجاد العرب فنون تربيتها وعلاجها وترويضها، ويقول النصيح: «ولعل العرب أول من سموا خيولهم وتأثر بهم الإفرنج وغيرهم، ولهذه الأسماء التي

يطلقونها على الخيل أثر نفسي وسلوكي عليها: لأن مناداة الفرس باسمه لفترة طويلة تجعله يألف سماعه فتعتادها آذناه، فإذا جد الجد، وحمى الوطيس، وصار صاحبه في حاجة إلى زيادة سرعته ناداه باسمه وحثه، فيستجيب له الفرس، ويزيد من سرعته ويضاعفها فيمكّن صاحبه من عدوه أو ينجو به فراراً وهرباً» أ.هـ.

إن سبق العرب الأمم الأخرى في معرفة شؤون الخيل سببه كما يقول الآلوسي - في كتابه بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب -: «أن كل من مارس شيئاً ولازمه كان أدرى بشؤونه وأعرف بأحواله مما سواه، وهؤلاء العرب لما كانوا على مر الأيام في كر وفر وإقدام وإحجام، لم تزل مواكبهم مصطفة، وكتائبهم ملتفة، وأعلامهم منشورة، ورياتهم مشهورة، وبنودهم خفاقة، وجموعهم مشتبكة، وأقرانهم متطاعنة، وفرسانهم متضاربة، وسيوفهم بدم النحور مشرقة، ورماحهم متشاجرة، وخيولهم متصاهلة، ونيران حروبهم مشتعلة، كانت الخيل أعظم عددهم، وآنفذ آلات ظفرهم بمقصدهم، بل كانت حصونهم المشيدة، وكنوزهم المخلدة، وعزهم الرفيع، وحرزهم المنيع، فلذلك وقفوا من أحوالها وأوصافها المحمودة والمذمومة على ما لم يقف عليه غيرهم، وعلموا من عللها وأدوائها ما لم يعلمه سواهم، حتى بلغ في ذلك صبيتهم ووليدهم ما لم يبلغه شيوخ قوم آخرين» أ.هـ.

وكان من مظاهر حب العرب للخيل أنهم كانوا يهنئون بعضهم بعضاً إذا ولدت فرس. قال ابن رشيق: «وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو شاعر ينبغ، أو فرس تنتج» أ.هـ.

ولا يرى العربي، مهما كانت مكانته الاجتماعية، عيباً في قيامه بنفسه بخدمة فرسه، بل إنه كان لا يتكل على غيره للقيام بهذه المهمة. ويقول حكيم في ذلك : ثلاثة لا يأنف الشريف من خدمتهم: الوالد.. والضيف.. والفرس.

obeikandl.com

يقول كامل سلامه الدقس: «والعربي قدس خيله التي هي أولى معدات الحرب، فعلى خبرتها بالحرب وقوتها تكون درجة القتال، وعلى ثباتها في المعركة تتوقف النتيجة، وعلى مدى سرعتها تكون النجاة أو الهلاك» أ.هـ

وفي وقتنا الحاضر تستخدم الخيول لإنتاج الأمصال ومضادات السموم، كما يمكن إنتاج هرمونات الإستروجينات من بول الأفراس الحوامل.

ومهما تقدمت التقنية الحديثة، فمازال الإنسان بحاجة إلى الجواد في كثير من مواقع عمله، والاستئناس به حبًا ووفاء لإخلاصه وتضحياته.

الخيل العربية سحرت الالباب بحبها وخطفت الأبصار بشكلها وجمالها.